مجلة آفاق علم الاجتماع المجلد 14 العدد 1 جوان 2024 ص ص147- 158
ر ت م د: 1112-8259 ر ت م د إ: 2600-6855

المنظور التركيبي لعلم الاجتماع – تجاوز الثنائية الجدلية-

The synthetic perspective of sociology-going beyond dialectical dualism-

د.صلاح الدين زراري*
جامعة بسكرة، الجزائر
salahzerari90@yahoo.com

أ.د. شويمات كريم
جامعة لونيسي علي، البليدة2، الجزائر
k.chouimet@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:2023/11/21 تاريخ القبول:2024/01/05 تاريخ النشر:2024/06/30

الملخص:

نسعى من خلال تقديم هذه الورقة البحثية للتطرق إلى أهم المنظورات المعاصرة لعلم الاجتماع والتي أقيمت لتجاوز نوع من التقليد السوسيولوجي – حبيس الصراع الثنائي – ليتحول بعدها الفكر نحو وضع أسس جديدة تقيم علاقات ترابط بين كل المتغيرات وتشكل في تفاعلها بناء من شأنه أن يكون قابل للدراسة في أي من إشكالاته التي يطرحها في المقابل تكون لسوسيولوجيا أدوات تفكيكه وفهمه فضلا عن إمكانية إصلاحه.

خلصت الدراسة إلى أن المنظور المعاصر لعلم الاجتماع يكون عبر التكامل والاندماج بين البناءات الذاتية والبناءات الموضوعية مع مراعاة لكل منهما خصائصه وشروطه وسياقاته.

الكلمات المفتاحية: بنينة، ممارسات، بنية، وعي عملي، هابيتوس.

Abstract:

By presenting this research paper, we seek to address the most important contemporary perspectives of sociology, which were established to overcome a type of sociological tradition-confined to a binary conflict- after which thought would shift towards establishing new foundations that establish interrelationships between all variables and form in their interaction a constructive structure that would be receptive. To study any of the problems it poses, on the other hand, sociology has the tools to dismantle and understand it, as well as the possibility of reforming it.

The study concluded that the contemporary perspective of sociology is through integration and integration between subjective constructs and objective constructs, taking into account each of them with its characteristics, conditions, and contexts.

Keywords: structuration, Practices, practical awareness, habitus, structure.

* المؤلف المرسل

1- مقدمة

مرت السوسيولوجيا كغيرها من العلوم بمراحل تطور لمقارباتها ومناهجها المعرفية، والحقيقة التي كانت تواجهها كتخصص علمي هي المعالجة البحثية للمواضيع المطروحة، ذلك أن المنظورات تختلف في المبادئ الأساسية التي تسعى لدراسة الوقائع الاجتماعية بداية من منطلقاتها القاعدية وصولا إلى النتائج المحصلة لدرجة أن نسب التعداد المقارباتي والمناهج التحليلية جعل مفكري علم الاجتماع بالحاجة لمزيد من الجهود نحو تذليل الصعوبات التي تحول دون الوصول إلى منطق علمي رصين يشابه ما تقوم عليه التخصصات العلمية الأخرى، وحتى تفهم مبادئ وقوانين تنظيم العالم المعاش المتشارك فيه والحركات المستمرة للحياة الاجتماعية(يمكن حصرها في قالب معين). فالأحداث الاضطرارية بداية من النصف الثاني من القرن الثامن عشر والتاسع عشر (ثورات علمية، صناعية، فكرية، دينية، سياسية ...الخ) وما كان من ورائها كاجتماعي غير مرئي أسس لإنتاج معرفة جديدة للحقل السوسيولوجي عامة رفض لأشكال التحليل المهيمنة سابقا التي عبرت عن محدوديتها في إعطاء تفسيرات مقنعة لكل هذه الأحداث وأنها لم تتمكن حتى من التنبؤ بمخرجات هذه التحولات العميقة، أن موقف السوسيولوجيا من رفض هيمنة الفكر الخطي الميكانيكي لتفسير الوقائع كأن وحده غير كاف بدون وضع مبادئ مغادرة حقل الثنائيات التي تقف كمانع أمام ورشات التعامل مع المستجدات وسيل الأحداث والمتغيرات الفجائية مما استدعى نقلة نوعية في المسار الفكري يناسب التوازنات المتفاعلة معنى ومدلولا.

إننا نتحدث عن ما يسمى بالمنعطف التفاعلي –كنموذج نظري معاصر- يسعى لامتلاك أدوات الإحاطة ميدانيا بكل الأنساق المركبة والمدمجة حيث تطرح في نفس الوقت مشاكل مبنية التي تشكل تفاعلات العالم المعاش أي ما هو اجتماعي معقلن من خلال ملاحظتها في بيئتها الاجتماعية المكونة من أبنية معقدة وعمليات متنوعة.

يدعو فيه هذا التيار إلى تجاوز كل أشكال المعرفة النظرية السابقة سواء كانت مدارس تعنى بإعطاء أولوية للبنية على الفرد في إقامة تحليلاتها للظواهر، أو تلك الأخرى التي ترى في وحدة – الذات الإنسانية (الفعل والمعنى) – من أصلح المنطلقات في الكشف وتفسير النظام الاجتماعي فضلا عن القدرة على تأويل.

إلا أن تجاوز هذه المعضلة كان على السوسيولوجيا أن تخرج من مأزق التأرجح بين الجدليات الموروثة ولتحقيق ذلك تمت الدعوة إلى تحديد مقاربة ملائمة يمكنها أن تحدث قطيعة مع التراث الكلاسيكي العقلانية /اللاعقلانية، الذاتية /الموضوعية، النظام/الفرد، الفاعل والبنية، اللذة /الأخلاق، الوعي /اللاوعي...، وحتى تقرب أكثر من ربط الاستدلال السوسيولوجي بالواقع التجريبي يجب أن توضع هذه الثنائيات كتقسيمات أو وحدات تحليلية داخل مجرى الأنساق أي أنها مؤثرات يؤدي أغلبها إلى الترابط والاعتماد المتبادل في بناء الظواهر والإشكاليات بالتالي يتكون العمق المتشارك فيه، وهو الذي يجب البحث فيه عن الفهم الداخلي للوقائع الاجتماعية أي أن البنية الاجتماعية توجد في معاني التفاعلات.

كانت البداية في تدشين المنظور الجديد أولا بأعمال كل من هارولد غارفينكل وارفينغ غوفمان، سيكورال ... وغيرهم من (المدرسة الأمريكية)، إلا أنه من بين المفكرين المعاصرين لهذا المنظور وفق مقاربات تصورية جديدة نجد كل من عالم الاجتماع البريطاني انطوني غيدنز1938-، وعالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو 1930-2002، حيث سنحاول عرض في هذه الورقات البحثية أهم ما تم طرحه كل منهما في نظريته من أسس نظرية و أدوات منهجية لفهم العلاقة بين الأنساق، بمعنى أن نخلص إلى أهم ما جاء به المنظور التفاعلي للبناءات الذي يحاول

أن يمتلك حسبه آليات المواجهة لمشاكل البشرية الجديدة بالبحث عن فهمها وتفسيرها مع إمكانية تقديم نتائج تأوليها.

2- نظرية البنينة - من الإنتاج إلى إعادة الإنتاج-

يعتبر التصور النظري الذي قدمه انطوني جيدنز تحت مسمى نظرية البنينة (la structuration) بالتوليفة السوسيولوجية، والذي يمكن تجاوز السجال القائم بين الكيانين الاجتماعيين البنية والفعل وما يتبعهما من خصائص ومواقف متعارضة، نحو فكرة البناء المستمر بين كلاهما والذي بدوره يتم عن طريق عملية البنينة كآلية يتصف بها الواقع الاجتماعي، وقد لخص جيدنز مسلمات نظريته في كتابه الشهير(قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع 1976) يمكن أن نوجزها في النقاط التالية:

- للبشر كذوات نشطة ومتشاركة القدرة في تغيير طبيعة البناء الاجتماعي ومن ثم يكون تغيير ذواتهم بوصف الطابع الإنساني الذي يميزهم، بالتالي فأن عملية الإنتاج وإعادة أنتاج المجتمع تأخذ بوصفها أداء مهاريا من قبل الأعضاء؛

- ينبغي ألا يصاغ البناء وكأنه يفرض حدودا على الفعل الإنساني وإنما كعنصر ييسر تحقيق هذا الفعل، الذي ينبغي أن يحلل ناموسيا ومنطقيا كمجموعة من " الأحداث" هذا التحليل الذي يمكن من التوصل إلى تفسير الخصائص البنائية للنسق الاجتماعي ،فالبناء يفحص في ضوء عملية صياغته البنائية للممارسة الاجتماعية أي أن نشرح كيف تصاغ البنية من خلال الفعل وبالتالي كيف تصاغ الأفعال بدورها بنائيا، تنطوي عملية الصياغة على تفاعل بين مفاهيم المعاني والمعايير والقوة وهي متضمنة منطقيا فكرة الفعل القصدي وفكرة البناء(جيدنز، 2000، ص 279)؛

- تخضع المفاهيم لازدواجية تأويلية تتجلى في التحليل والتأويل والتوسط بين أشكال الحياة المختلفة وتحليل عمليتي إنتاج وإعادة إنتاج المجتمع باعتبارها الثمرة التي يحققها الفعل الإنساني(جيدنز، 2000، ص ص 280-281).

خلص جيدنز إلى التوفيق بين البنيات الذاتية والبنيات الموضوعية وراع لكل منهما خصائصه وشروطه وسياقاته الخاصة وتأثير أحدهما في الآخر وأحال إلى فكرة "ازدواجية البنية" بدل الثنائية المتعارضة، فالعلاقة الطبيعة المتلازمة والترابط القوي بين البنية والفعل أو العكس يجعل من الضروري إقامة تفكير يميل إلى التركيب بين خصائص عناصر البنيتين بصورة تبادلية وتكاملية عوض النظر لهما في سياق التعارض أو التضاد الكلي بينهما.

فمسعى جيدنز نحو فك التوتر القائم بين الاجتماعي كموضوع والفرداني كذات باعتبارهما قطبين متكاملين أو وجهين لعملة واحدة أقحمه في إعادة فحص معمقة لمفاهيم "الفاعل"، "النسق الاجتماعي" "الممارسات الاجتماعية"، "البنية" ما أدى بدوره إلى انبثاق نظرية البنينة".

فالبنية بالنسبة لانطوني جيدنز يمكن اعتبارها شرطا (condition) كما يمكن اعتبارها نتيجة (résultat)، بالتوازي مع الفعل الاجتماعي الذي يميزه الطابع المبنين (بالكسر) وفي نفس الوقت مبنين(بالفتح). وللتعبير عن هذا الطابع الحاصل في الواقع الاجتماعي عمد "جيدنز" إلى تبيان مفهوم البنينة (la structuration) كعملية تشكل الممارسات الاجتماعية(معمري، 2007، ص 49) جزءا من ازدواجيتها لما كانت تتكون من الفعل والبنية معا، فالبنية ليست خارجة عن الفعل بل أنها توجد داخل مجرى الفعل الذي يكون الممارسات المعينة(احجيج، 2020، ص 256). وبالتالي تمكننا من الإمساك بموضوع الإنتاج وإعادة الإنتاج، حيث يتعلق الإنتاج بالطريقة

التي يتم بها إنتاج نسق الحياة الاجتماعية وتشكل ماهية تجاربهم الاجتماعية. فبالنسبة لجيدنز يخلق البشر المعنى والواقع الاجتماعي من داخل الأطر الاجتماعية وبناءا عليه فإن الأشكال الاجتماعية كالمؤسسات والبنيات لا توجد مستقلة عن الأنشطة التي تجسدها(احجيج، 2020، ص 257).

أما فيما يرتبط بمشكلة إعادة الإنتاج اعتمد المنظر إلى مدلول البنينة والتي تشير عنده: "إلى مجموعة من القواعد والموارد التي يستند إليها الأفراد من أجل أنجاز ممارساتهم الاجتماعية" (احجيج، 2020، ص 257). ففكرة "ازدواجية البنية" تحمل اعتبارين للبنية في حد ذاتها فمن جهة تمثل فيها هذه الأخيرة وسيلة أو شرطا لتحقق الممارسة الاجتماعية بناءا على جملة من الموارد المعرفية والمؤهلات المكتسبة ومن زاوية أخرى نتيجة لها، إلا أن من المرتكزات لهذه النظرية هو اعتماد الموارد المعرفية والقواعد أو المؤهلات وغيرها التي تساهم في أنتاج وإعادة أنتاج الفعل يتم كذلك اعتمادها كآليات تساعد في بلورة وإعادة أنتاج نسق النظام.

بمعنى أن للفاعل القدرة على أنجاز الممارسات الاجتماعية ومن ثم منح هذه الممارسات القدرة على إعادة أنتاج نظام اجتماعي بطريقة غير متوقعة، أي أن الممارسات "مبنينة"(احجيج، 2020، ص 258).

فالذي يتعين التركيز عليه حسب نظرية جيدنز هو مجموع الممارسات الاجتماعية التي تتم وتنتظم في المكان والزمان وليس تجربة الفاعل الفردي كبناء ذاتوي أو الوجود الكل الاجتماعي الحتمي كبناء هو الأخر موضوعي يضيف "جيدنز" أن الأنشطة الاجتماعية لها طابع ارتدادي ومتكرر (récursives) والفاعلون الاجتماعيون لا يخلقون الأنشطة بل في الواقع يعيدون خلق هذه الأنشطة بشكل مستمر فهم يقومون في أنشطتهم ومن خلالها بإعادة أنتاج الشروط التي تجعل تلك الأنشطة ممكنة(معمري، 2007، ص 50).

للتوضيح نقدم الشكل الآتي لتبيان أكثر لسيرورة البنينة من خلال تفاعل أربعة مركبات مفاهمية أساسية في النظرية: النسق الاجتماعي، الفاعلين، وممارسات اجتماعية تنقسم إلى إكراهية، مهارية، ثم النسق البنيوي، حيث تتفاعل كلها مع بعضها البعض على نحو ديناميكي تبعا لوتيرة من الاكراهات والكفاءات المهارية.

شكل رقم1 : يوضح سيرورة البنينة

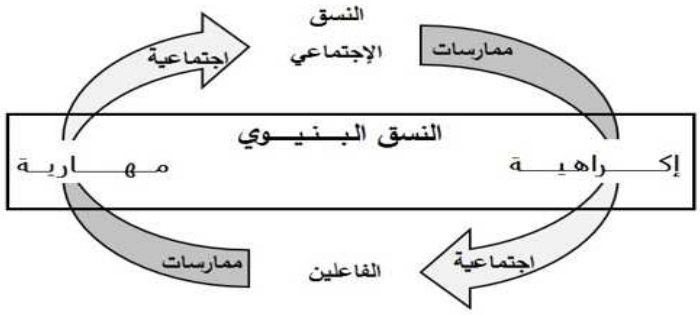

المصدر : (Nizet, 2007, p16).

- تتسم الممارسة الاجتماعية بالديناميكية(كما هو موضح في الشكل من خلال الأسهم النصف دائرية)، فالاجتماعي تتم مقاربته باعتباره حركية تعمل فيها الأفعال الفردية في الوقت ذاته على

بنينة الأنساق الاجتماعية كما تتبنين هي الأخرى تبعا لهذه الأنساق، بحيث لا تمتلك هذه السيرورة نقطة انطلاق ولا يحظى قطب بالأسبقية على قطب آخر(Nizet, 2007, p16).

وفقا لهذه الوضعية المتسمة بالديناميكية تكون الممارسة الاجتماعية قد احتلت دور الوسيط الخاضع للتغير النسبي والرابط بين القطبين المستقريين نسبيا " النسق والفاعل"، ومن منطلق الممارسات يفصل **"جيدنز"** بين كل من الممارسات الظرفية للأفراد والممارسات المستمرة والمتكررة التي عن طريقها ينشأ الوصل بين الفعل والبنية، بذلك كانت وتيرة التكرار للممارسات المهارية التي يبتدعها الأفراد في مواجهة المشاكل والتعقيدات يعيد تشكيل أو"يبنين" معالم النسق الاجتماعي الذي يغدو بدوره إكراها على الأفراد حتى ينشأ عن هذا الإكراه ممارسات مهارية أخرى وهكذا دواليك (Nizet, 2007, p53).

- يشير مصطلح النسق الاجتماعي (system social) على أنه: " قواعد وموارد تمكن الممارسات الاجتماعية من إعادة أنتاج نفسها عبر الزمان وليس باعتبارها قوى خارجية مجردة ومهيمنة"(جيدنز وصاتن، 2018، ص 48) كما استخدم جيدنز النسق الاجتماعي في سياق مجموعة أو حصيلة الكيانات الاجتماعية المتفاعلة والتي تستقر وتتغير وفق اعتبارات شروط الزمكان (Espace-Temps).

- يكتسي مصطلح النسق البنيوي عند جيدنز كونه خارج حدود المكان والزمان وهو متواجد داخل الأفعال وليس خارجها، فالنسق البنيوي يتواجد في شكل أثر ذاكري بفضله يقوم الفاعلين المهرة بتوجيه سلوكاتهم، حيث يبرز دوره في سيرورة البنينة من خلال وظيفتين:

- يعمل على تعزيز الإكراه تجاه الفاعلين بحيث يحصر ممارساتهم بمجموعة من القواعد؛
- يتيح لهم إمكأنية الفعل بتوفيره للموارد والتي تمنحهم القدرة على إما أنتاج نسق اجتماعي جديد أو إعادة أنتاج نسق اجتماعي أثبت فعاليته وتحقيقه للاستقرار والتوازنات بين متطلبات النسق الاجتماعي ومتطلبات الفاعلين(بن سبع، 2021، ص 54).

إذ يتلخص تشكل النسق البنيوي فيعملية الضبط –بنينة اكراهات لمحاولة حصر الممارسات-السيرورة التي بدورها تؤدي إلى تفعيل وظيفة عملياتية ثانية تتمثل في تحقيق وإعادة أنتاج الفعل من خلال توفير المؤهلات والموارد اللازمة، نخلص من خلال ما سبق عن اكتساب تتمتع بها لخصائص البنائية للنسق الاجتماعي في وقت واحد بين عمليتي الشرط كوسائل والنتيجة الخاصة بالممارسات المنتظمة بطريقة يطبعها التكرار والاستمرار.

- يبني جيدنز اعتقاده تجاه الأفراد بأنهم يتفاعلون مع بعضهم البعض باستخدام مجموعة من المعارف والمؤهلات التي تم تعلمها في عالمهم المعاش ويطلق عليها مصطلح المؤهلات التفاعلية تسمح هذه الأخيرة بتزويد الفاعلين باستخدامها لتنظيم شبكة علاقاتهم وتعاملاتهم وتبادلاتهم بشكل عملي باستمرار الأمر الذي مكنهم من اكتساب المعرفة على مستويات عدة منها، معرفة بمؤهلات الكتابة والكلام، ومعرفة بالبيئة المحيطة، ومعرفة كيفية التعامل مع الآخرين، ثم معرفة التصرف، من ثم يحدد جيدنز أن كل ما يفعله الفرد يتم بوعي وذكاء وعلى أساس حسن اطلاع(احجيج، 2020، ص 258). لذلك تم ربط معرفة الفاعلين وفقا لاعتبار رئيسي والمتمثل في الانعكاسية (réflexivité)، التي تتأتى من استمرارية الممارسات الاجتماعية. فهي "طريقة (الانعكاسية) يختص بها الإنسان وتسمح له بمراقبة السيل المتواصل للحياة الاجتماعية، فالشخص هو ذلك الفاعل الذي يضع نصب عينيه تحقيق أهدافه وله دوافع تجعله يفعل ما يفعله؛ فهو يستطيع التعبير عن الأسباب والدوافع بالكلام وبطريقة جهرية وصريحة..."(معمري، 2007، ص 50).

ذلك أن الفرد أثناء ممارسته سوف يدرك و يفهم الشروط التي يتفاعل من خلالها و يضع الأهداف والاعتبارات التي بواسطتها يوجه سلوكاته كما ينتظر هو كذلك من الفاعلين الآخرين القيام بنفس الشيء ومن ثم يتوقع وضع معين يمكنه من الفعل، باختصار يتميز الفاعل بشكل رئيسي بالتحكم الانعكاسي الذي يمارسه على سلوكاته، لذلك ربط جيدنز مستويات المعرفة(تم ذكرها أعلاه) بنماذج الوعي التي تنضوي تحت الانعكاسية ويقسمها إلى "الوعي الخطابي والوعي العملي" يحيل الوعي الخطابي إلى كل ما يمكن أن يعبر عنه الفاعلون بطرق متنوعة –شفويا أو كتابيا- وهو مجال المعرفة النظرية الذي يحيل الفرد على التعبير عقلانيا ومناقشة مبررات فعله(احجيج، 2020، ص 259). أما الوعي العملي فهو كل ما يعرفه الفاعلون بشكل مضمر وكل ما يعرفون القيام به في الحياة الاجتماعية وهو مجال المعرفة العملية التي يتوفر عليها الفاعلين الأكفاء بسعة اطلاع وتتبع قواعد الحياة الاجتماعية(احجيج، 2020، ص 259)، وبالتالي يحول هذين النوعين من الوعي إلى ما أطلق عليه "جيدنز" بالحواجز أو الكبت الموجود على مستوى اللاوعي، هذا الأخير هو ما يشكل أحد حدود مهارة الفاعلين، حيث تعكس هذه المستويات الثلاث على أفعال الأفراد المهرة وتتميز بحدود مفتوحة حسب توافقها مع السياقات الزمكانية.

نستخلص أهم المسلمات لنظرية البنينة باعتبارها أسس ابستيمولوجية نرتكز عليها لتتبع مسار البحث السوسيولوجي أن التحليل الذي قدمه جيدنز في نظريته والمتمثل في الربط بين البنى الاجتماعية أي بين كيانين الفعل من جهة وما يتوفر عليه من خصائص: الوعي ومستويات المعرفة، وما تحوزه من أنماط ذات طابع معياري تقني وأداتي يكون بمثابة البناء وإعادة البناء على تفاعل الخصائص البنائية المشتركة للنسق الاجتماعي:

- يدخل عنصر الشرطية الزمكانية في تركيبة الممارسات الاجتماعية كشيء أساسي تشكلت وتراكمت وفقه الظروف التي تم نشاط الأفراد في سياقات حدودها وبالتالي تكون بمثابة الحيز الظرفي الذي ينتج في خضمه الفاعلون النسق الاجتماعي. فالبنينة تقوم بالدرجة الأولى على البعد الزمني وما يحمله من معاني تنسب للأفعال – من تاريخ التمثلات/الممارسات المشكلة للظروف السابقة – المتراكمة بفعل الصعاب التي يواجهها الأفراد كأعضاء متفاعلين أثناء نشاطاتهم قصد بلوغ أهداف مشتركة منها مسار التحولات أو التغيرات (خاصة التقنية منها)، فالتجربة البشرية في إقامة فعل منظم ومنتج اقتصاديا داخل الكيانات الاجتماعية (المنظمات، المؤسسات، المقاولات...) في مواجهة المشاكل والتعقيدات تحقق إثباتها كتراكمات انتقائية تحسن تطوير الشروط البنائية للفعل التنظيمي كحلول -ممارسات ذات طابع أداتي-تم أشكلتها وفق اختيارات عقلانية.

- استنادا على السوسيولوجيا العلائقية وبالاعتماد على التحليل التفاعلي بين الشروط النسقية التقنوية التي تفرضها البنية المادية(الشكلية) كعنصر خلاقا في علاقة النسق التقني مع نسق –الممارسات- الفعل الجماعي، ومن خلال مبدأ الأنساق التقنية المتعددة البنائية تم الكشف عن الدور الذي تلعبه هذه الأخيرة باعتبارها جزءا ونمط من البنية في رسم وبنينة محددات علائقية جديدة.
- ارتكاز نظرية البنينة بالدرجة الأولى على استمرارية الممارسات الاجتماعية التي تقود نحو مبدأ الانعكاسية وما ينتج من مستويات للوعي عملي/ خطابي أو أنواع للمعرفة، كلها تميل تجاه الفاعل على أساس أنه واعي ومهاري ويتمتع بمؤهلات تفاعلية في سياق تنظيماتي أو مؤسساتي وقادر على تشكيل قواعد للاشكلية منظمة للممارسة الاجتماعية لتجاوز التعقيدات والاكراهات.
- من خلال الاكراهات البنائية التي يفرضها النسق الاجتماعي على الأفراد (قوانين، إجراءات، نصوص، برامج حاسوبية...الخ) كلها من شأنها أن تحد وتضبط الممارسات الاجتماعية وبالموازاة مع المهارات والمؤهلات والمعارف التي يستدمجها الفرد ويكتسبها بفضل ما يتيحه النسق البنيوي

من موارد وإمكانات كحلول للفعل، بالتالي يصبح الفاعل قادر على خلق وإضفاء معاني على الأفعال والأنشطة والممارسات التي يقوم بها انطلاقا من مستويات الوعي والمعرفة التي يتمتع بها، مما يصر عن أفعاله انطلاقا من العقلانية الأداتية الشيء الذي يؤهل ممارساته كممارسات اجتماعية تم بنائها بطابع المهارية وإكسابها المؤهلات للمساهمة في بناء وإعادة بناء-بنينة-النسق الاجتماعي باستمرار، إذ الفاعل هو عنصر ديناميكي وليس ستاتستيكي في معادلة الواقع التنظيمي(بن سبع، 2021، ص 57).

3- الهابيتوس كآلية إمبريقية في تخطي الثنائية

تلقت النظرية الفردانية انتقادات واسعة لمسلماتها لعل من أبرزها تلك التي خص بها **بييربورديو** في رفضه للمذهب الذاتي الذي يرجع ممارسات الحياة الاجتماعية وديناميتها إلى مقصودية تم وعيها من قبل الأفراد وأن سبب القيام بفعل معين يتحدد بعملية عقلانية في ذهن الفاعل تم حسابها بغض النظر عما إذا كانت متوافقة مع المعايير والقواعد الاجتماعية أم لا، أنه ينبغي النظر إلى مفارقة أساسية يتم الكشف عنها في تحليل الممارسات الاجتماعية إذ أننا مدعوون في الواقع إلى تخطي إغراءات النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية ولتجنب سبيل البحث في خط موجه يقول بيير بورديو: "كان الأمر في البداية بالنسبة لي يتمثل في وصف الممارسة في أشكالها الأكثر تواضعا كالأفعال الطقسية، والاختيارات الزواجية، والتصرفات الاقتصادية اليومية، وغيرها للإفلات من النزعة الموضوعية للفعل التي تعتبره بمثابة رد فعل آلي بلا عميل، وفي الوقت نفسه من النزعة الذاتية التي تصف الفعل على أنه أنجاز إرادي عن قصد واع..."(بيير دوران وويل، 2019، ص 411).

وفي سياق معارضته قدم بورديو توضيح مهم لتشييد الممارسة المنتظمة في الواقع الاجتماعي حيث يدعو لتجاوز السجال بين المذهب الذاتي من جهة والمذهب الموضوعي من جهة أخرى بالانتقال إلى الرؤية الطبيعية للعالم المعيشي، فالحياة الاجتماعية صحيح أنها قائمة على عناصر مادية. لكن الشروط المادية تؤثر في السلوك بوساطة من المعتقدات والاستعدادات والتجارب الفردية، كما أن الحياة الاجتماعية لا توجد إلا من خلال تجارب وأفعال الأفراد المتوسط لها رمزيا(احجيج، 2018، ص 40).

يلخص بورديو التعارض الحاصل بين المذهبين من منطلق عدم مراعاة المذهب الذاتي لإكراهات الظروف الخارجية التي تمتلك صفة الإلزام والخضوع تجاه الفاعلين بالإضافة لخصوصية الحقل الاجتماعي وشروطه المفروضة بصفته الحيز الذي يمارس فيه الفاعلون مختلف نشاطاتهم، كما يعاب على المذهب الموضوعي تجاهله(لموضوعية الذاتية) و(واقع التمثل)، "أي أنه لا يعترف بتجارب الإفراد للواقع الاجتماعي وبأن التصورات التي يحملونها تمثل أحد مكونات هذا الواقع"(احجيج، 2018، ص 41).

يتصور هذا الأخير حلا يمكن من رؤية مغايرة فيغير علاقة الجدال بين ما هو(ذاتي) أو(موضوعي) إلى تكامل وتعاون باعتبار أن كلاهما يشكل أهم العناصر التي تقوم عليها ممارسات الحياة الاجتماعية ولا يقوم أي منهما إلا بمشاركة الآخر، وبالتالي فأن الحل يكمن في نظرية الهابيتوس حسب بيير بورديو: " التي تهدف إلى إتاحة إمكانية خلق علم للممارسات متحرر من ضرورة الاختيار بين النزعة الغائية والنزعة الميكانيكية"(احجيج، 2018، ص 44)، بالمعنى هذا نتساءل إذا كان بورديو سيحيلنا إلى إقامة علاقة تدعو نحو ثنائية جديدة بين ذاتي / موضوعي وهل توجد إمكانية تشكيل علاقة من هذا النوع أم سنشهد ذوبان وانصهار للبناءات سواء الموضوعية أو

الذاتية بغرض وساطة تساعد على بناء واقع اجتماعي يحفظ العلاقة التي يشارك فيها الكل بانتظام ممارس.

ما يفك اللبس عن هذا ويقدم إجابات حقيقية يبدأ من التعاريف التي قدمها المفكر عن الهابيتوس أولا؛ منها التي تعتبره: "أنه نسق من الاستعدادات الدائمة والقابلة للنقل، أيضا أنه بنايات مبنية مستعدة للاشتغال كبنايات بآنية، أي كمبدأ يولد وينظم الممارسات والتمثلات التي يمكن أن تكون متكيفة موضوعيا مع هدفها دون أن تستلزم الاستهداف الواعي لغايات معينة ولا الإتقان الواضح للعمليات الضرورية لبلوغها"(احجيج، 2018، ص 60)، بهذا يتموضع الهابيتوس كمحدد للعلاقات بين البنيات المتعددة التي تتم في شروط الوجود، على أن ينظر للبناءات كمبادئ في إطار عملي منتظم تنتج ممارسات.

إذن تكون الهابتوس كنسق مكتسب من المخططات المولدة للممارسات ومن ثم للواقع الاجتماعي، هو إنتاج لفئة محددة من الانتظامات الموضوعية فأنه يميل إلى توليد مجموع السلوكات المعقولة الخاصة بالحس المشترك، الممكنة في حدود الانتظامات (احجيج، 2018، ص61) يرتكز الهابيتوس في كونه استعدادات معرفية مكتسبة "خطاطات معرفية" غير أن هذه البناءات العقلية مغايرة لما تدعو به النظرية الذاتية فهي ليست مستمدة من تمثلات وأراء وأفكار أعضائها وأنها مقصودة ومنتجة عن وعي وحساب عقلاني محض، بل يطرحها المفكر على أنها طبيعة ثنائية بين العالم الاجتماعي والاستعدادات المكتسبة من الأفعال والتفكير والآراء والإدراك، "ويقصد بذلك أن يعفى الفاعل من التفكير بشكل واع وعقلاني وانعكاسي فيما سيفعل، نظرا لأن الهابيتوس يجسد بداهة الممارسات الصحيحة والملائمة ويميل إلى الاختيارات المتوافقة مع الشرط الذي أنتجها" (احجيج، 2018، ص 62).

يعمل التجانس الذي صاغه بورديو بين كلا من الواقع الاجتماعي والهابيتوس كاستعدادات على تكوين ما يعرف بالبعد العملي للمعرفة حيث يستدمجها الفاعل من خلال الممارسات التي يلاحظها أو يشارك فيها ويحافظ على تعبئتها باستمرار كما لها الدور الكبير في استجابة الأفراد للمواقف التي يواجهونها بخاصية عملية وغير انعكاسية للممارسات السابقة، الأمر الذي يكرس التكامل بين الممارسات والمعرفة العملية، كون الاستعدادات التي تنتج الممارسات ترتبط تكوينيا بهذه الممارسات ذاتها، فإذا كانت الاستعدادات تنتج ممارسات فأن هذه الأخيرة تنتج استعدادات أيضا(احجيج، 2018، ص 62) يتكرس التفاعل بين البناءات -كظروف واكراهات خارجية- والفاعلين –القائمين بانجاز الأفعال- ويتوج بممارسة هي اقرب من كونها تنفيذا عمليا ومعرفيا يقوم به الفاعل. ولتوضيح أكثر أن هذه الممارسات ليست منتجة ذاتيا-عن قرارات وحساب عقلاني – ولا إلى أسباب حتمية خارجية ومتعالية عن الفاعلين-فمصدرها الحس العملي الذي يستحضره الفرد أو الجماعة بتلقائية وعن غير وعي تام، "فالمبدأ المولد للممارسات والتمثلات والمنتج لانتظامات الحياة الاجتماعية هي المعرفة الكامنة التي تعبر عن نفسها في الهابيتوس"(احجيج، 2018، ص 64).

بدوره أكد بورديو في عدة أعمال له على غرار كتاب "موجز نظرية للممارسة" من تقديم تعاريف وشروحات عن الحس العملي والذي يعني: قدرة الفاعل على التعامل مع وضعيات **تفاعلية** معينة انطلاقا من معرفة عملية يكتسبها بفضل انتمائه إلى وسط اجتماعي محدد، وتتميز هذه المعرفة التي يسترشد بها الفاعلون في سلوكاتهم بكونها معرفة ضمنية، بمعنى أن الفاعل الذي يملكها لا يعي أنه يملكها ولا يستطيع التعبير عنها في صيغ قضوية(احجيج، 2018، ص 65).

إنها في الحقيقة اكتساب يحصله الفاعل من سيرورة التنشئة الاجتماعية التي تلقاها في الحيز الاجتماعي الذي يشكل هويته –جماعة الممارسة-فهي مجمل طرق التفكير وأساليب الفعل تم التدرب عليها ووعيها والتشبع بها، بذلك يتطرق المفكر نفسه لبعد مهم وهو الانتظامات في ممارسات العالم الاجتماعي من حيث أن الأنشطة البشرية تخضع لمستوى عالي من الانتظام المضبوط البعيد عن أي اكراهات معيارية ما أو ضرورة حتمية-كالعرف أو التقاليد أو....، فملذي يجعل من الممارسات مضبوطة دون خضوعها لقاعدة معينة؟ يبرر هذا الأخير أنه لبناء نموذج من استراتيجيات الفعل يستوجب العمل في إطار الهابيتوس فمن منطلق المبادئ والاستعدادات المضبوطة التي يوفرها كبناء تم تشكيله تكون المقدرة على أنتاج سلوكيات منتظمة و أكثر انضباطا وخارجة عن أية إحالة إلى شكل من أشكال القواعد المفروضة، "ففي المجتمعات التي لا يكون فيها عمل التقنين متطورا، يكون الهابيتوس هو مبدأ معظم الممارسات"(احجيج، 2018، ص 67). يعني أن الفاعل يميل إلى الاستجابة بنوع من التفكير الجزئي والغير قابل للانعكاس فالحس العملي يكتسب بممارسات يشاركها الفرد ويتعلمها كتطبيق عملياتي يجعل من هذا الأخير يعمل على إدراك ثم تأويل الرموز والمعاني التي يطلقها الآخرون كانجازات ثم يقوم بالاستجابات التي تأتي في إطار الممارسات كاستعدادات معرفية عملية ملائمة لشروط الوجود الموضوعية، ومع تطور الممارسات، أصبح الهابيتوس قادر على أنتاج استراتيجيات تفيد في حل المعضلات الموضوعية التي تجابه الفاعلين في وضعيات معينة، أن البناء الذي أقيم بين "البناءات الموضوعية" بصفتها اكراهات الواقع الاجتماعي و"البناءات الذهنية" كونها المعارف والاستعدادات الرمزية المعبئة قد تم تطويره من هابيتوس منتج لممارسات في إطار وضعية ما إلى استراتيجيات تسمح بإتقان الفاعل وتمكنه من الاستجابة لغالبية الوضعيات بأفعال تلقائية وغريزية، "ذلك أن تدريبا ملائما قادر على أن ينمي لدى الفرد مجموعة من السلوكات الآلية التي لها من حيث النتائج، كل مظاهر الفعل المفكر فيه والعقلاني التي تملي عليه الشيء الذي يجب القيام به في حالات لا يكون فيها الفعل المفكر فيه والعقلاني ممكننا"(احجيج، 2018، ص ص 69-70).

ويعلل بورديو بكون الهابيتوس عامل يتوافر على عدة خصائص " فهو مبدأ معرفة دون وعي، ومبدأ قصدية دون قصد، ومبدأ إتقان عملي لانتظامات العالم الذي يمكن من استباق مستقبله دون الحاجة إلى طرحه على هذا النحو...فهو ما يسمح لنا بأن نفهم كيف أنه يمكن توجيه بعض السلوكات بالنسبة لغايات معينة دون أن تكون موجهة عن وعي(احجيج، 2018، ص 70).

يمكننا أن نفهم أن الفاعل الناجح هو من أتقن بشكل جيد المعرفة العملية وعمل على أنجاز ممارسات لا تكون خارجة عن إطار انتظام الحس العملي –حس اللعب- حيث تتوفر لمثل هؤلاء سلوكيات متطابقة مع الحقل الذي تكون منه الهابيتوس فهم بذلك الأكثر نجاحا وتحقيقا لأهدافهم بسهولة كما أنهم ليسوا بحاجة إلى بناء استراتيجيات عقلانية وواعية أو البحث عن القيام بأفعال قصدية بل هم يفتقرون للوسائل التي تجعل منهم عقلانيين، فبمجرد امتلاكهم للسلوكات المتكيفة تمكنهم من الاستجابة لقواعد اللعبة والحالات المستعجلة، فالحس العملي لا يقتصر على إمداد الفاعلين بالممارسات أو تعبئتها وإتقانها، حيث تشكل المعرفة العملية بالانتظامات الاجتماعي قدرة عند الفعل وتجعل في استطاعته التكييف مع ما تفرضه الوضعيات، أن لهذه الكفاءة العملية "مجموعة من المبادئ المولدة لاستراتيجيات تمكن الفاعلين من مواجهة وضعيات طارئة ومتجددة باستمرار"(احجيج، 2018، ص 70).

تعيد نظرية الهابيتوس إعطاء تحليل أكثر تفسيرا من سابقيه بالتركيز على فهم سير نسق العلاقات التفاعلية للبنى القائمة بين الفاعلين في الفضاء الاجتماعي المحمول بوضعيات وظروف تكون سمة مميزة –متشارك فيها- باعتبارها مولدة لممارسات اجتماعية فالعملاء الاجتماعيون،

ليسوا مثل أولئك الكلاسيكيين في امتثالهم البسيط لقواعد البناء العام وفقط، إنهم أكثر استعدادا ومعرفة علمية وأيضا كفاءة عملياتية بالتالي فهم ينتجون ممارسات بطابع إستراتيجي عكس ما كان يقوم به الفرد سابقا من ممارسات حتمية ملزم باتخاذها كقوانين يمتثل لها في مجابهته للواقع المعاش، فما يجب على الباحث أو عالم السوسيولوجيا إدراكه وفهمه هو المعرفة المتواجدة في أساس فعل الوكلاء-الأعوان- الذي بدوره يتم عبر التجارب الأولية والتدريبات السلوكية المتناقلة يتم استيعابها وتآلفها وهذا ما يطلق عليه استدماج البنى الاجتماعية بصورة مكتسبة عن طريق عمليات التعلم التي تكون بصفة مستمرة ملازمة للفرد في فضائه الاجتماعي المباشر.

لكن ما أسست له نظرية الهابيتوس هو ضبط الحس المدمج كاعتياد عملي للأعوان بالتالي تكون إستراتيجياتهم ذات نمط طبيعي وتلقائي دون أي قصد ذاتي مسبق –بعيدة على أنها تكون أنتاج فكر إستراتيجي عقلاني محض- فهي مدركة باعتبارها دلالة اعتيادية تم ضبطها للتصرف بين مفارقات البنى والمواضيع، وهو الأمر الذي جعل منها عرضة للإختلالات التي قد تحدث بشكل طارئ حيث تعتبر التغييرات المفاجأة وضعيات لم يعتاد عليها من قبل فتجاوزها كصعوبات معاصرة يعتبر صعب المنال ويشكل مرحلة توقف إعادة أنتاج الفكر ميكانيكيا حيث تلعب التنشئة الاجتماعية عملية صقل المعارف والهابيتوس بين جيل وجيل آخر أو بين طبقة و أخرى فرغم الإرادة الحقيقية لكل حاضر في تجاوز أي نوع من الهيمنة الماضية والتخلص من الترسبات السابقة يكون بمشقة وصعوبة ولكنها لا تعدو من كونها تمثلات أعيد إنتاجها فقط بكيفيات مغايرة بالتالي لا نشهد انقطاع أصل الهابيتوس بقدر ما نرى ديناميكية نسبية في مركباته وأبنيته أنه منتوج يتطور تاريخيا.

نستخلص من المنظور البورديسي جملة من النقاط الإبستيمولوجية أو أسس الطريقة السوسيولوجية التي أستخلصها من دراساته المعمقة ونشرها في كتابه تحت عنوان "مهنة عالم الاجتماع"سنة 1968 حيث تأتي مرتبة على النحو التالي:

- **أن** يحدث الباحث السوسيولوجي قطيعة مع ما يعرف بالحس المشترك: كلنا نحمل أفكار مسبقة وتمثلات حول الواقع المحيط بنا أو الظواهر التي نعايشها دوما فهي تحاول غالبا أن تقنعنا أنها كفيلة بإقناعنا بتفسيرات التي تقدمها لنا فكما تمدنا بالأفكار العامة والأولية حول الواقع المعيشي فهي تقف في نفس الوقت أمام المعرفة العلمية وهي التي ينبهنا عليها دوركايم ويطلق عليها مصطلح البديهيات الزائفة حول الواقع الاجتماعي...، وعلى العالم أو الباحث السوسيولوجي أن يقف للحيلولة دون أن تصيبه هذه العدوى بل يجب عليه أن يعيد تعريف الأفكار والمصطلحات ضمن نسق مفاهيمي للغة العلمية(بوخريسة، 2017، ص ص 246-250).
- القطيعة واليقظة الابستيمولوجية: وقد فصل **بيير بورديو** لأنواع القطائع بشكل مرتب كالقطائع مع التقليد النظري (نظريات جاهزة لأي موضوع اجتماعي) والتي تستوجب التمرس الأصيل لحرفة السوسيولوجي في تحقيق الوفاق بين الاختيار النظري والمنهجي، كما يذهب بورديو بتأكيده على الحذر أيضا من التفسيرات الطبيعية وغيرها من الأنواع الأخرى فضرورة أنتساب البحث الاجتماعي إلى ممارسة علمية أكثر أهمية من انضوائه تحث إطار نظري معين(بوخريسة، 2017، ص ص 251-252).
- بناء الموضوع: حيث يحاول الباحث في هذه المرحلة أن يتجاوز تلك المقاربات الكلاسيكية في مقابل تمسكه بالعلم والمعرفة المنتظمة للسوسيولوجيا من خلال طريقتها الموضوعية في تقديم جملة الاقتراحات والتحليلات حول الظواهر محل دراسة وتتميز بقابليتها للاختبار امبريقيا(بوخريسة، 2017، ص ص 254-255).

- خاتمة

أن تشييد باراديغم جديد يحمل مفاتيح للفهم والتفسير إلى غاية إمكانية التنبؤ والتأويل بالفعل الاجتماعي يعتبر تحول الحقل الفكري للسوسيولوجي بطعم الانتصار نحو أفكار وتخمينات نظرية معاصرة محمولة بإمكانيات علمية واقعية من شأنها أن تقدم حلول للإشكالات والأزمات الاقتصادية، الاجتماعية ...

يخلص العالمان على أن المنظور المعاصر لعلم الاجتماع يكون عبر التكامل والاندماج بين البناءات الذاتية والبناءات الموضوعية مع مراعاة لكل منهما خصائصه وشروطه وسياقاته، أي عدم انصهار واحد في لآخر بل التفاعل بينهما بصورة تبادلية تميل إلى رؤية أن كل منهما يخدم الثاني بشكل مباشر. فالبنية كإكراه أو شرطا هي في حد ذاتها مسار للفعل الذي بدوره ينشط ويتحرك ضمن أطرها وسياقها المحددة مسبقا بالتالي يخلق الفرد الفاعل ممارسات ذات معاني داخل الأنساق الاجتماعية.

بهذا تكون البنية داخل مجرى الممارسات البشرية وليست خارجة عنها ومن جهة تكون الأفعال نشطة داخل بناءات، أنها سيرورة حركية للأنساق المتداخلة تتسم فيها الممارسات الاجتماعية بالديناميكية لتعيد كل مرة إعادة أنتاج وهيكلة نفسها وفق الاضطرابات أو الأحداث والتطورات، فالممارسات هي العامل المتغير والوسيط الخاضع للتغييرات حسب الظروف المطروحة في الواقع ولهذا كان للفاعل في ممارساته أنه سوف يدرك ويفهم الشروط التي يتفاعل معها ويحدد وفقها اعتباراته وأهدافه مع الآخرين كما أنه يتشكل عنده ما يعرف بالوعي بشقيه الخطابي والعملي أو الحس العملي .

- قائمة المراجع

- احجيج حسن .(2018) . *نظرية العالم الاجتماعي -قواعد الممارسة السوسيولوجية عند بيير بورديو*، المغرب: مؤمنون بلاحدود للدراسات والأبحاث.
- أنطوني جيدنز. (2000). *قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع*، (محمد محي الدين، المترجمون) القاهرة: المشروع القومي للترجمة.
- بوبكر بوخريسة. (2017). *سوسيويوجية بيير بورديو تحليل في النظرية والمفاهيم والمنهج*. الجزلئر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- بيير دوران، ج.،& ويل، ر .(2019). *علم الاجتماع المعاصر*، ترجمة طواهري ميلود، الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع.
- جيدنز، أ.،& صاتن، ف .(2018). *مفاهيم أساسية في علم الاجتماع*، ط1، ترجمة الذوادي، قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- حسن احجيج. (2020). *مخل إلى علم الاجتماع نظرياته-مناهجه-قضياه المعاصرة*. لبنان: مؤمنون بلاحدود للدراسات والأبحاث.
- لحبيب معمري. (2007). *المقاولة والثقافة*. المغرب: منشورات مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية.
- محمد عبد الرؤوف بن سبع. (2021). البنية التنظيمية ودورها في تشكيل علاقات السلطة داخل المؤسسة الجزائرية(أطروحة دكتوراه). كلية العلوم الأنسأنية والاجتماعية، بسكرة: جامعة محمد خيضر، الجزائر.
- nizet jean. (2007). *la sociologie de anthony Giddens.* paris: la découvert.